ابن خلدون فى مصر

للأستاذ محمد عبد الله عنان

٢

وانه لمنظر شائق ذلك الذى يقدمه الينا ابن خلدون عن مجلسه فى ذلك اليوم ومن حوله العلماء والأكابر يشهدون الدرس الأول لذلك المفكر المبدع . وهو يحرص على تدوينه بما يحرص على تدوين الأثر الذى يعتقد انه أحدثه اذ يقول : « وانفض ذلك المجلس وقد شيعنى العيون بالنجلة والوقار »[1] . وفى ذلك مايدل على ما كان يشعر به ابن خلدون فى كبرياء وثقة من انه كان شخصية ممتازة تجب احاطتها بمظاهر خاصة من التكريم والرعاية . ثم كانت الخطوة الثانية فى ظفره بمناصب الدولة ، وتعيينه قاضيا لقضاة المالكية فى اواخر جمادى الآخرة سنة ٧٨٦ (اغسطس ١٣٨٤ م)[2] مكان القاضى المعزول جمال الدين بن خير السكندرى . وكان ارتفاعه الى هذا المنصب الذى هو رابع أربعة تعتبر من أهم مناصب الدولة ايذانا بوثوب العاصفة من حوله ، واضطرام تلك الخصومات التى كدرت صفو مقامه ، وادالت نفوذه ، واقلقته من المنصب غير مرة . يقول ابن خلدون فى سخرية : « وأقمت على الاشتغال بالعلم وتدريسه الى أن سخط السلطان قاضى المالكية يومئذ فى نزعة من النزعات الملوكية ، فعزله واستدعانى للولاية فى مجلسه وبين امرائه . فتعاديت من ذلك ، وابى الابمضاء »[3] . وقد عرف ابن خلدون هذه « النزعات الملوكية » ، وعرف انها تبطن من الشر والنقم فى معظم الأحيان أكثر مما تسبغ من العطف والنعم . ولكنه يريد أن تفهم أن ارتفاعه الى منصب القضاء لم يكن نزعة ملوكية فقط . وانما اختاره السلطان كما يقول « تأهيلا لمكانه وتنويها بذكره »

ونستطيع أن نقدر أن ولاية ابن خلدون لخطة القضاء لم تكن حادثا عاديا . فقد كان أجنبيا . وكان تقدمه فى حظوة السلطان ، وفى نيل المناصب ، سريعاً . وكانت مناصب التدريس والقضاء دائما مطمع جمهرة الفقهاء والعلماء المحليين ؛ ولم يكن مما يحسن وقعه لديهم أن يفوز بها الاجانب الوافدون دونهم . واذا فقد تولى العلامة المغربى منصبه فى جو يشوبه كدر الخصومة والحسد . وجلس بمجلس الحكم فى المدرسة الصالحية بين القصرين . فلم يمض سوى قليل حتى ظهرت من حوله بوادر الحقد والسعاية ، ويقول لنا ابن خلدون فى سبب هذه العاصفة التى ثارت حول توليه القضاء . كلاما طويلا عما كان يسود القضاء المصرى يومئذ من فساد واضطراب ، ومايطبع الأحكام من غرض وهوى ، وعما كان عليه معظم القضاة والمفتين والكتاب والشهود من جهل وفساد فى الذمة : وانه حاول اقامة العدل الصارم المجرد عن كل شائبة ، وقمع الفساد بحزم وشدة ، وسحق كل سعاية وغرض ، يقول : « فقمت فى ذلك المقام المحمود ، ووفيت عهد الله فى اقامة رسوم الحق ونحرى العدالة . لاتأخذنى فى الله لومة ، ولا يرغبنى عنه جاه ولا سطوة ، مسويا بين الخصمين ، آخذا الحق الضعيف من الحكمين ، معرضا عن الشفاعات والوسائل من الجانبين ، جانحا الى التثبت فى سماع البينات ، والنظر فى عدالة المتحملين لتحمل الشهادات ؛ فقد كان البر منهم مختلطاً بالفاجر ، والطيب مشوباً بالخبيث ، والحكام ممكون عن انتقادهم ، فيتجاوزون عما يظهر عليهم من هناتهم ، لما يموهون به من الاعتصام بأدل الشوكة ، فان غالبهم مختلطون بالأمراء ، معلزون للقرآن وائمة للصلوات ، يلبسون عليهم بالعدالة فيظنون بهم الخير ، ويقسمون الحظ من الجاه فى تزكيتهم عند القضاة ، والتوسل لهم ، فاعتضل داؤهم ، وفشت المفاسد بالتزير والتدليس بين الناس منهم ؛ ووقفت على بعضها فعاقبت فيه بموجب العقاب ، ومؤلم النكال . . . » ثم يعدد نواحى الفساد التى شهدها ، وجد فى إصلاحها وقمعها ، وكيف مضى فى سبيله « من الصرامة وقوة الشكيمة » وكيف احتقر شفاعات الأعيان والأكابر خلافا لما اصطلح عليه زملاؤه القضاة من قبولها ، حتى ثار عليه السخط من كل ناحية ، وسلقته جميع الألسن وكثرت فى حقه السعاية لدى البلاط[1] .

وهذا التعليل الذى يقدمه لنا ابن خلدون عن سبب الحفيظة عليه ، واضطرام الخصومة حوله ، معقول يحتمل طابع الصراحة والصدق بل هذا ماتسلم به التراجم المصرية المعاصرة والقريبة من عصره . فيقول ابو المحاسن مشيراً الى ولايته للقضاء : « فباشره بحرمة وافرة ، وعظمة زايدة ، وحمدت سيرته . ودفع رسائل أكابر الدولة ، وشفاعات الاعيان ، فاحذوا فى التكلم فى أمره . . . »[2] . ويقول ابن حجر والسخاوى . « فتكر (أى ابن خلدون) للناس بحيث لم يقم لأحد من القضاة لما دخلوا للسلام عليه ، مع اعتذاره لمن عيه عليه

(١) نسخة التعريف بالخطة ص ١١٠

(٢) يذكر ابن خلدون ان تعيينه فى هذا المنصب وقع لأول مرة فى رجب سنة ٧٨٦ ولكن الروايات المصرية كلها متفقة على أن هذا التعيين كان فى جمادى الآخرة (السخاوى فى الضوء اللامع : وابن تغرى بردى فى المنهل الصافى كل فى ترجمة ابن خلدون — والسيوطى فى حسن المحاضرة ج ٢ ص ١٢٣) . ولكن يبدو من رواية ابن خلدون انه بدأ مباشرة وظيفته فى رجب ، وانه يحمل من التعيين وبدأ العمل واقعة واحدة

(٣) نسخة التعريف الخطة ص ١١١

(١) كتاب الضوء اللامع ج ٧ ص ٢٥٣ و ٢٥٤ (٢) المنهل الصافى ج ٢ ص ٢٠٩

فى الجلة . وفتك فى كثير من أعيان الموقعين والشهود ، وصار يمزر بالصفع ، وشهة الزج ، فاذا غضب على إنسان . قال زجوه فيصفع حتى تحمر رقبته » [1] . وفيما ينقل السخاوى قصد الى التعريض والانتقاص . ويرى أنه شديد الوطأة على ابن خلدون يشدد فى نقده وتجريحه : ولكن فى قوله مايؤيد أن ابن خلدون كان يصدر فى قضائه عن نزاهة وحزم وصرامة : بل هو يشهد لابن خلدون بذلك صراحة . حينما يقول عنه فى موضع آخر : «ولم يشتهر عنه فى منصبه الا الصيانة . . »

انتضت العاصفة على ابن خلدون اذا لأشهر قلائل من ولايته وكثر السعى فى حقه والاغراء به حتى « أظلم الجو بينه وبين أهل الدولة » على حد تعبيره . وفقد حظوته وماكان يتمتع به من عطف ومؤازرة . واصابته فى ذلك الحين نكبة أخرى هى هلاك زوجه وولده وماله . وكان منذ مقدمه ينتظر لحاق اسرته به : ولكن سلطان تونس حجزها عن السفر ليرغمه بذلك على العودة الى تونس فتوسل الى السلطان الظاهر ان يشفع لديه فى تخلية سبيل اسرته به . ففعل . وأطلق سراح الأسرة وركبت البحر الى مصر . ويروى لنا ابن خلدون نبأ الفاجعة فى قوله : « وتوافق ذلك مصاب بالأهل والولد . وصلوا من المغرب فى السفين . فأصابها قاصف من الريح ، ففرقت . وذهب الموجود والكن والمولود : فعظم المصاب والجزع . ورجح الزهد . واعتزمت على الخروج عن المنصب » ولم يمض سوى قليل حتى أقيل المؤرخ من منصب القضاء . أو بعبارة أخرى . حتى عزل . بيد انه يريد أن نفهم أن هذا العزل جاء محققا لرغبته اذ يقول : « وشملنى نعمة السلطان أيده الله فى النظر بعين الرحمة ، وتخلية سبيلى من هذه العهدة التى لم أطق حملها . ولا عرفت فيها زعموا مصطلحها . فردها الى صاحبها الأول ، وأنشطنى من عقالها : فانطلقت حميد الأثرة مشيعا من الكافة بالأسف والدعاء وحميد الثناء . تلحظنى العيون بالرحمة . وتتناجى الآمال فى بالعودة » . والخلاصة أن ابن خلدون يؤكد لنا ان عزله كان نتيجة التحامل والحقد والسعاية فقط ، وانه أثار استياء وأسفا فى المجتمع القاهرى ، وانه غادر منصبه موفور الكرامة والهيبة . بيد اننا سنرى حسبما يشير فى قوله المتقدم انه كان يرمى بجهل الأحكام والاجراءات وانه لم يكن بذلك أهلا لتولى القضاء . وانه كان مشغوفا بالمنصب أشد ما يكون حرصا عليه

وكان عزل ابن خلدون عن منصب القضاء لأول مرة فى السابع من جمادى الأولى سنة ٧٨٧ هـ (يوليه ١٣٨٥ م) . اعنى لنحو عام فقط من ولايته . فانقطع الى الدرس والتأليف كرة أخرى

على أن هذا العزل لم يكن إيذانا بسخط السلطان وتقمته : فقد لبث ابن خلدون فى منصب التدريس بالقمحية : ولم يمض سوى

(١) ابن حجر فى رفع الاصر والسخاوى فى الضوء اللامع المجلد الثانى من القسم الثانى ص ٢٦٨

قليل حتى عينه السلطان أيضا لتدريس الفقه المالكى بمدرسته الجديدة التى أنشأها فى حى بين القصرين (المدرسة الظاهرية البرقوقية) . واحتفل ابن خلدون كعادته بالدرس الأول ، وألقى خطابا بليغا يدعو فيه للسلطان ، ويعتذر عن قصوره فى تواضع ظريف . وشغل بالدرس فى المعهدين حتى كان موسم الحج عام تسعة وثمانين . فاعتزم عندئذ اداء الفريضة . وأذن له السلطان وغمره بعطائه . وغادر القاهرة فى منتصف شعبان : وقصد الى الحجاز بطريق البحر : ثم عاد بعد اداء الفريضة ، بطريق البحر أيضا حتى القصير : ثم اخترق الصعيد بطريق النيل . فوصل القاهرة فى جمادى الأولى سنة تسعين (٧٩٠ هـ) : وقصد السلطان توا وأخبره بأنه دعاله فى الأماكن المقدسة . فتلقاه بالعطف والرعاية . ثم خلا كرسى الحديث بمدرسة صرغتمش [1] فولاه السلطان اياه بدلا من تدريس الفقه بالمدرسة السلطانية ؛ وجلس للتدريس فيها فى المحرم سنة إحدى وتسعين . وألقى خطاب الافتتاح كعادته فى حفل فخم ، وأعلن أنه قد قرر للقراءة فى هذا الدرس كتاب الموطأ للامام مالك ؛ ويعرفنا ابن خلدون بموضوع درسه الأول فى ذلك اليوم . فقد تكلم فيه عن مالك ونشأته وحياته وكيفية ذيوع مذهبه ، ثم يقول لنا فى كبرياء المعهود : « وانقض ذلك المجلس . وقد لاحظنى بالتجلة والوقار العيون ، واستشرت اهليتى للمناصب القلوب . وأخلص النجا فى ذلك الخاصة والجمهور » [2]

« النقل ممنوع » « البحث بقية »

(١) كان موقع هذه المدرسة شمال الجامع الطولونى على مقربة من القلعة

(٢) التعريف (النسخة الخطية) ص ١٢١

(القصة المصرية — بقية المنشور على صفحة ١٧)

ما يلاقيه من متاعب الحياة نراهم يوجهون اهتمامهم الى هذه المتاعب نفسها فيتناولونها بالدرس والتحليل . وأدهى من ذلك أنهم كانوا يسلكون فى كتاباتهم طريقة الوعظ الجافة . أضف الى ذلك أنهم لم يسلموا من تسلط الفكرة القديمة ، فكرة العصور الوسطى ، التى تنظر الى الأدب كوسيلة من وسائل المباهاة والظهور . سواء فى ذلك من ساروا على الطريقة القديمة أو من قاموا بترجمة بعض المؤلفات الغربية كعثمان جلال والمنفلوطى . ولم يخل الكتاب السوريون من التشيع بهذه الفكرة أيضا . وحتى كتاب الأقاصيص الذائعة التى تركت فيها وايا النسيان الذى استحقته منذ ظهورها . قد قصدوا فى كتابتهم الى ذلك الغرض الوعظى الخلقى . ويظهر لنا من هذا أن أولئك الكتاب كانوا ينظرون الى القصص التى تكتب للجمهور نظرة ازدراء . مما كان له أكبر الأثر فى تأخر نمو القصة كفن من فنون الأدب العربى .